## الفصل الخامس والعشرون

## لم يعد لي

أيام ثقيلة بطيئة أخذت تمر على نفس طارق وجسده، كان حراً ثم قُيِد للسرير فجأة، رأسه ثقيل، والألم يدقه حتى من أصوات الناس الكثيرة، ووميض الضوء يوجع عينيه أحياناً، انعزل لفترة، وفقد كل تواصلٍ مع غير أسرته حتى عبر هاتفه، ظل عبد الكريم هو من يجيب أصدقاءه ويطمئنهم عليه، اغتاله المرض كما اغتال الندم والألم قلبه، أطفأوا معالم المرح الذي اتسم به، بنت العزلة شخصاً آخر في نفسه.

وبعد أسبوع تحسن قليلاً من آلامه وإن كان لا يزال طريح الفراش، قدم رفاقه الأربعة لزيارته، لم يتركوه بعدها يوماً إلا مروا إلى المستشفى لأجله، فحاول الخروج من كل كدرٍ يعتمل في نفسه بالحديث معهم بهدوء ولو قليلاً والاستمتاع بمقالبهم في القاعة فيبتسم، ثم أخبروه أن الامتحانات النهائية قد بدأت وانشغل الجميع بها، خاف أن تفوته السنة، كان يتمنى أن تنتكس دراسة ضياء فإذا بأمنيته تتحقق له! طمأنه ناصر وهو يقول:

-سألت العميد عن وضعك، أخبرني أن في وسع والدك أن يقدم عذر مرضك لإدارة الكلية لتمتحن متى كان في وسعك ذلك، ستكون معنا يا صديقي المهم أن تتحسن.

تنفس في ارتياح، ثم شكره وشكرهم جميعاً على زياراتهم الدائمة، كانت عائشة تتركهم ليقضوا وقت الزيارة معه علهم يخرجوه من حالة العزلة والحزن الغريبة التي لاحظتها عليه

بعد أسبوعين، شعر بأنه صار قادراً على الجلوس على سريره لبعض الوقت والمشي قليلاً بالغرفة، والدردشة مع رفاقه عبر الهاتف، ومع اقتراب وقت العصر في ذلك المساء، أخذ يتحدث مع رُبا ووالدته حول دراستها، قالت عائشة مبتسمة:

-تعليم بطيء لكنه مثمر، أعتقد بأني سأسمح لضياء بتدريسها حتى موعد السنة الدراسية الجديدة لتلتحق بالمدرسة، سنذهب إليها بعد قليل.

ابتسم لرُبا وقال:

-هذا جيد يا رُبا.

ابتسمت له وقالت في زهو:

-أنا رسامة موهوبة يا طارق.

-حقا!! أريني شيئاً من لوحاتك.

أسرعت تفتح حقيبتها لتخرج له دفتر به عدد من رسوماتها، رآها وأثنى عليها ثم قال:

-استمري، ستصبحين رسامة عظيمة في المستقبل إن شاء الله.

-شكراً أخي.

ثم نظر لأمه وقال:

-لقد أصبحت تذهبين لمنزل ضياء بدلاً عني.

تنفست الصعداء، وهي تقول في ضيق:

-للأسف نعم، بعد أن تحسنت قليلاً استطعت ذلك، أشعر بالاختناق بمجرد ولوجه.

سألها بحزم:

-أمي، ما رأيك بسكانه؟

سألت بدهشة:

- سكانه؟!

- أقصد معاملة ضياء وأمها لكِ.

- إنهما طيبتان، وضياء بالفعل فتاة صبورة وقد انسجمت مع رُبا وإزعاجها رغم عدم ارتياحي لها وخوفي من شكل وجهها؛ لكني لم أكن لأزروهم لأي سبب سوى حاجتي لها وتلبية لطلبك، منزلهم يثير اشمئزازي.

- أمي، ربما أولئك الناس لا يحبون الإقامة بالمنزل كذلك، فهل ستنزل طيبة ضياء وأمها في نظرك بسبب سوء المنزل وتشوه وجهها؟

بدا الاستغراب على وجهها من قوله فحدجته بنظرات حادة وهي تقول:

-ما الذي تحاول قوله؟

- ما أردت قوله هو أن الإنسان بجوهره يا أمي وليس بمظهره أو بمظاهر ما حوله.

عقدت حاجبيها، وقالت في ضيق:

- حقاً؟! هذا الكلام لا يقنعني، ما يهمني هو أن تتعلم ابنتي وحسب، وإن وجد والدك وقت فراغ فسأدعه يتولى إيصال رُبا ويحل مكانك.

بدا اليأس على وجهه حين لم يستطع إقناعها بكلامه، وتنهد بعمق، وكادت رُبا أن تتكلم حين أقبل عبد الكريم من عند الباب وهو يقول مبتسماً:

-احزر من جاء لرؤيتك يا طارق؟

- من؟

سأله في فضول، فتح الباب ليدخل عدد من زملائه بالكلية، رحب بهم في سرور وجلست عائشة وربا بعيدتان حين أحاط رفاقه به ومن ضمنهم أصدقاؤه الأربعة المقربين، تبادلوا الأحاديث في مرح وقدموا له الهدايا واطمأنوا عليه، ليدخل بعدهم عدد الآخر، سرّ بزيارتهم وابتهج؛ لكن حين دخلن زميلاته خفق قلبه بعنف وهو يتخيل بأن ضياء ستكون معهن لتطمئن عليه، شكرهن على الزيارة وبصره يبحث عن وجهها بينهن فلم يجدها، قال في نفسه ساخراً:

-يا لي من شخص غريب، كنت أكره رؤية وجهها فإذا بي أبحث عنه الآن؟ وما أغباني حقاً، كيف أفكر بأنها قد تأتي لزيارتي وأنا من تفنن بجرحها وإهانتها؟

لم تهدأ أوجاع نفسه ولم يستطع تهدئتها حتى بعد أن ودعه زملاؤه وزميلاته جميعهم، بقي صامتاً واجماً لفترة يعد المواقف التي جمعته بها فلم يجد فيها ما يسكن آلامه؛ بل فاقمتها، استلقى على فراشه وهو يتحدث في نفسه:

-ضياء تكرهني، ماذا ستكون نتيجة الكراهية إلا مثلها؟ كيف أسمح لفتاة كنت أكرهها بأن تستحوذ على قلبي وتشغل فكري هكذا مهما كان خلقها وطيبتها وتعاملها؟ لم تزدني إلا ألما

بمساعدتها ليتها لم تفعل، هل يمكنني نسيانها ونسيان كل ما حدث؟ كيف سيتم لي ذلك؟ بت تائه لا أدري ما أريد.

انتبه الوالدان لعودته إلى شروده الغريب ذاك، نظرا لبعضهما في قلق، وعائشة في حيرة كبيرة لتصرفاته، توقعت أن تتغير نفسيته بعد رؤيته لكل زملائه، أما عبد الكريم فقد أيقن بأن ضياء قد احتلت مكانة في نفسه ولهذا افتقدها بين زميلاته لتحتدم معركة العقل والقلب من جديد، أشفق عليه، وهو يقول في نفسه:

-غريب أن يتعلق قلبك بها بعد كل ما بدر منك، أرجوك لا تحاول ذلك.

إلا أن رُبا -التي لم تدرك شيئاً- أسرعت تقترب منه، وقالت في مرح وهي تبحث عن شيء في حقيبتها:

- نسيتُ أن أريك شيئا يا طارق.

أعرض بوجهه عنها، وهو يقول في ضيق:

-أريد أن أنام، ابتعدي عني.

قالت متجاهلة طلبه:

-وسام الشجاعة.

انتبه لها ونظر إلى القلادة المصنوعة من الصوف حيكت خيوطها ذات اللون الأصفر والوردي بعناية لتكون على شكل زهرة، كتبت بقلبها (الشجاعة رُبا) وأحاطتها ببعض

الحبات الكريستالية الصغيرة، أدرك بأن ضياء هي من صنعتها لأجلها، ارتدتها في زهو، وهي تقول:

-أخبرتني ضياء بأن الشجاع هو من يستطيع أن يحفظ أسرار غيره وكافأتني بها.

قال عبد الكريم:

-إنها جميلة يا ابنتي، وضياء على حق فيما قالته لك.

ابتسمت له؛ لكنها فوجئت بطارق يضحك بصوت عالٍ فعقدت حاجبيها ، وقالت في غضب:

- أتسخر مني؟

تمالك نفسه وهو يتحمل ألمه أيضاً لانفعاله المفاجئ:

- لا أبداً، بل سخرت من طريقة تفكيري حين أغريتكِ لكي...

قطع عبارته حين انتبه بأن والديه سيعرفان بأمره، فقال لها:

-إنها جميلة جداً يا رُبا، لقد نجحتِ.

عادت ترسم الابتسامة على وجهها وتقول:

-شكراً لك، كما أن ضياء طلبت مني أن أبلغك تحياتها وتتمنى لك الشفاء.

وجم حين سمع ذلك، بينما ابتسم عبد الكريم وهو يقول:

-معلمتك فتاة طيبة يا رُبا.

-هي كذلك يا أبي.

هزت ربا رأسها مؤيدة، بينما ابتسم طارق ابتسامة صغيرة مشوبة بالحزن وهو يقول في نفسه:

- لِمَ يا ضياء؟ لِمَ؟ لم أكن إلا أؤذيك ومع ذلك...

ثم نظر لأخته وقال:

-أُشكُرِيها نيابة عني.

ردت في حماس:

- سأفعل.

عاد ليسترخي على فراشه ويغمض عينيه وهو يشعر بأن ضياء قد كبرت في أعماقه، فقال في نفسه:

-رائعة أنتِ يا ضياء، أما أنا، فلن أكون سوى شهاب يختفي في سماءك، لن أصل إليك كما وصلتِ إلي، هل سأعيش الآن يا ترى بقلبٍ لم يعد لي؟

وحلت بركات السماء في أمسيات ليالٍ مليئة بالخير والعطاء..

ليالي شهر رمضان الذي أزف على بلوغ النهاية، ومعه وفي نفس اليوم تحل الذكرى الأولى التي تمر بقلب ضياء؛ بل بقلوب كل أهل عدن، ففي هذا اليوم من العام الماضي أعلن تحرير عدن وانتصار المقاومة، كانت تشعر بالسعادة لذلك، وبالحزن لعجزهم عن العودة إلى أحضانها؛ لكن الحياة يجب أن تستمر بما سيتناسب مع ظروفهم، وما زاد فرحتها اتصال سحر بها لتبشرها بنجاحها وحصولها على درجة الامتياز والمرتبة الأولى، شكرتها ثم أسرعت تبشر

أمها التي هنأتها وفرحت كفرحها، وانتظرت قدوم شادي الذي استأنف عمله بالورشة والسوق المركزي بعد إجازة إصابته، انتظرته بفارغ الصبر لتبشره أيضاً وتريه أن جهوده معها لم تضع هباءً.

ومع وقت السحور عاد إلى البيت، كانت إصابته لا تزال مضمدة وقد أزيلت الجبيرة منها، وهو يحاول قدر المستطاع أن يقوم بما يستطيع القيام به بيده الأخرى، وبذل جهده لأجل ذلك، استقبلته على الفور وهي تقول في فرح:

-بارك لي يا أخي.

ابتسم وقال:

-مبارك يا ضياء، لكن لِمْ؟ هل ظهرت نتائجكم؟

-نعم، وقد نجحت بتقدير امتياز.

تهلل فرحاً وقبَّل جبينها وهو يهتف:

-مُبارك مبارك يا أختي.

-شكرا لك، أشعر بسعادة كبيرة أن استطعت التفوق رغم كل ما مررنا به، لقد بقي نصف عام فقط.

-الحمد لله، كنتُ أتوقع لك ذلك.

-وماذا عنك يا أخي؟ كيف سير عملك مع إصابتك؟

بادلها الابتسامة وهو يقول:

-إني في مرحلة التأهيل، ورئيسيَّ بالعمل قدرا وضعي، بفضل استطعت أن أعيد ما استدنته من مالك الورشة بفضل مساعدتك لي يا ضياء ولم يتبقَ إلا دين السيد عبد الكريم.

ابتسمت في سعادة، بينما تابع:

-أتدرين من جاءني اليوم بالسوق؟ كان طارق.

بدت المفاجأة على وجهها، وسألت:

-هل خرج من المستشفى؟

-قال بأنه قد خرج منذ أكثر من أسبوع، بدا لي متعباً لكنه بخير.

- ماذا كان يريد منك؟

- شكرني على مساعدتي إياه في ذلك اليوم واعتذر عما بدر منه حينها.

ذهلت لقول أخيها، بينما سألت مها قائلة وهي تقترب منهما:

-هل كان جاداً؟

- لا أخفيك سراً، لم أعد أرى ملامح وجهه المغرورة التي عرفته بها في ذلك اليوم، شعرت بأنه قد تغير كثيراً، لا أدري، هل الحادثة التي أرقدته المستشفى سبب ذلك؟..

ازدادت دهشة ضياء وذهولها وهي تفكر، لقد التمست تغيراً في حديثه معها في آخر يوم له بالكلية، ما الذي غيره هكذا؟ وتذكرت رُبا حين أخبرتها عن سبب إصابة وجهها وأجابتها لكنها نقلت حديثها لأخيها ، فقالت لها بعصبية:

-لِم أخبرتِ أخاك بذلك؟

قالت رُبا في ارتباك:

-لم تخبريني بأن هذا الأمر سر، ظننته أمراً عادياً..

تنهدت بعمق ،بينما قالت رُبا:

-لكن طارق حزن لذلك، لم يسبق لي أن رأيته حزيناً هكذا من قبل.

ذهلت لقولها، لم يكن طارق يكترث بشيء إلا بنفسه، هل حقاً سيتغير؟ عليها أيضاً ألا تطمئن لجانبه بعد كل ما بدر منه نحوها، أرادت فقط أن تعامله كأي زميل لها دون تساهل بسبب ذلك فوافقت على نصيحة سحر؛ لكنها أرسلت له سلامها مع رُبا.

ثم قطعت بحر تفكيرها حين سمعت أمها وهي تقول في ابتسامة:

-أسأل الله أن يهديه ويكون عوناً لوالده الطيب..

قال شادي:

-وأنا أتمنى ذلك أيضاً.

ثم رن هاتفه في تلك اللحظة فأجاب:

-السلام عليكم.

-وعليكم السلام، عزيزي شادي، كيف حالك؟

قال شادي في فرح:

-خالي نبيل!! كيف حالك؟

بدا السرور على وجه مها وأسرعت تنتزع هاتفه من يده فاجأته لكنه ابتسم لتصرفها، ورأى دموع فرحٍ في عينيها وهي تقول:

- أخي، كيف حالك وحال أسرتك؟ أين أنتم الآن؟

-لقد عدنا إلى بيتنا منذ شهر، تعثر بعض أمور في المملكة فلم نتمكن من العودة إلى عدن؛ لكن الحمد لله كلنا بخير، ماذا عنكم؟

- الحمد لله نحن بخير، موجودون في مدينة المكلا.

-عرفت هذا من بعض من هم موجودين عندكم من عدن، لِم لا تعودون يا أختي؟ لقد عاد الكثيرون، المحافظة تحررت منذ مدة.

بدا الحزن على وجهها وهي تقول:

- أعلم هذا يا أخي؛ لكن أين سنعود وقد تهدم بيتنا؟

- إلى منزلي يا أختي، أهلا بكم، لا يمكنك أن تظلي بعيدة عنا هكذا.

- ولكن سنثقل عليكم.

- ما هذا الكلام؟ ما كنا لنتفرق لولا الحرب يا أختي، عودوا وكل الأمور ستكون على خير ما يرام، والجامعة قد عادت للعمل واتصل بي رئيسها طالباً أن يلتحق شادي بهيئة التدريس وضياء ستكمل دراستها بيننا.

ابتسمت وهي تقول في اقتناع:

-الحمد لله، حسناً إذن، ضياء على وشك إنهاء سنتها الدراسية، سنعود إليكم بعد أن تتممها إن شاء الله.

نظر الشقيقان لبعضهما في فرحة عامرة، أن يعودوا لمدينتهم بعد هذا الغياب، ثم سمعت مها نبيل يقول:

-كما تريدين، أعطيني ضياء لأحادثها.

ناولت مها الهاتف لابنتها، وسلمت ضياء على خالها فرحة، ثم قال لها بألم:

-لا بأس على ما أصابك يا ابنتي.

-هل علمت بها؟

-نعم علمتُ عنكم كل شيء.

قالت لتطمئنه:

-لا تقلق، الحمد لله أنا بخير.

رد بحزم:

-عندما تعودون وتستقر أمورنا جميعاً سآخذك إلى السعودية، سمعتُ من أحد أصدقائي بأن هناك طبيباً جراح مميز بإمكانه علاج إصابتك ستعودين كما كنت إن شاء الله.

-هذا كثير يا خالي، يكفي أن...

قاطعها وهو يقول في حزن:

-ابنتي، أشعر بالذنب لأني قصرت بحقكم، ما كان علي مغادرة المدينة من دونكم.. لكن خففوا عبء هذا الذنب بقدومكم.

-شكرا خالي.

أشار شادي لها فناولته الهاتف وهو يقول في لهفة:

-خال، هل هنالك أملٌ في إجراء الجراحة لضياء؟ لقد مضت أكثر من سنة على إصابتها.

-أعلم يا بني؛ لكني سأبذل ما في وسعي لأجلها ولنسلم أمرنا لله المهم ألا نيأس.

هدأ نفسه وأجابه في امتنان:

-ونعم بالله، شكراً لك يا خال.

وحين انتهت المكالمة، دخلت السعادة أعماق قلوبهم ورأوا تباشير الفرح تلوح لهم بعد كل ما مروا بهم و لاح فجر الأمل من ظلمة اليأس والألم والحرمان، كان أجمل شعور ولج صدور نازحين شردوا من أرضهم و بيتهم قسراً لتلوح لهم الفرحة بالعودة للديار بعد كل تلك الأحزان، مداويةً جراح أيام طال اندمالها.

ثم أقبلت أيام الفصل الدراسي الجديد الأولى، ومعها عاد طارق وبرفقته رفاقه الأربعة إلى القاعة، هتف زملاؤه الشباب بصوت واحد عالٍ مرحبين به في سرور، كان يرتدي قبعة على رأسه بعد أن تم حلق شعره بسبب العملية، لم يكن يحب منظر شعره القصير الذي جعله يبدو أصلعا فواراه بها، ورغم أن ملامح وجهه بدت مختلفة وجسده ضعف قليلاً، وطبعه

صار أكثر هدوءً، إلا أنه استقبلهم بابتسامة مثل ما استقبلوه بكل بشاشة، وعزوا تغيره بسبب تغيبه فترة طويلة وبسبب ما واجهه من إصابته ومرضه.

أما هو، فقد كان يتذكر رجاء والده في أن يجعل الدراسة جل اهتمامه وأنه سيتابعه و يبذل جهده لأجله، قرر أن يلبي طلبه رغم أن عبدالكريم لم يطلعه على معرفته بما فعله مع ضياء راجياً تغيره حين أحس بندمه، واصل دراسته وأكمل امتحاناته وحاول بجد فيها حتى استطاع النجاح بتقدير جيد فرح بذلك كما أسعد والديه أيضاً، ثم عاد لينتظم في مقاعد الدرس بعد ذلك يعوض ما فاته خلال فترة الامتحانات؛ لكن ما يربكه هو مواجهته لضياء بالقاعة كل يوم.

لم يكن يدري ما هي حقيقة شعورها نحوه، هل تكرهه كما كان يكرهها وبسبب ما بدر منه في الماضي؟ هل تحاول تناسي ما كان منه لأجل عملها في تعليم ربا؟ إنه ولا شك لا شيء بالنسبة لها، أما هو فقد أدرك مكانتها في نفسه، فكيف يصلح أخطاءه أو أن يطمح بأن تسامحه بعد كل ما بدر منه؟ كان يتحاشى حتى النظر إلى حيث تجلس رغم أن قلبه يراها كل يوم فلا تفصلهما إلا أمتار قليلة، لقد أظلت سماء قلبها أرض قلبه دون أن يستطيع السمو لها، هل هناك أمل له؟ ظل حائرا في معاملته لها، وغير قادر على مصارحة أحد بما في نفسه، إنه بحاجة إلى فتاة مثلها أو امرأة تكون وسيطاً بينهما حتى يدرك جلية شعورها نحوه؛ لكن من تلك يا ترى؟ لا أحد أمامه سوى أمه التي أخبرته بأنها لا تحبها وتخاف من وجهها ولم ترتح لها بسبب ذلك

مثل ما كان يكرهها، حاول أن يغير فكرها ولم يستطع، إنها الشخص الوحيد التي يمكن أن تساعده، ظلت أعماقه مضطربة لم يصل إلى حل ينهي ما يعتمل في نفسه.

أما رفاقه الأربعة فقد أزعجهم هدوءه، لم يعد ينسجم معهم في أحاديثهم المعتادة عن المحاضرين والطلاب مثل ما كان يفعل كل مرة في أثناء المحاضرات، ولم يلاحظوا ذلك إلا حين عاد إلى الجامعة، بعد خروجه من المستشفى وبقائه في المنزل كانوا يزورونه يوميا ولم يلاحظوا عليه أي تغيير إلا الآن، تسائلوا في أنفسهم:

-ماذا حدث له؟

فاجأهم مرة حين طلب إليهم أن يقللوا حديثهم ويتقدموا إلى المقاعد الأمامية، لم يصغوا لطلبه وماطلوه، حينها ترك الجلوس بقربهم منتقلاً من مقعده، لفت هذا التصرف كل زملائه وزميلاته، قالت سحر لضياء في همس ساخرة:

-لن يستطيع فهم شيء حتى لو جلس بأول مقعد.

ابتسمت لها وهي تقول في سرور:

-لا يا سحر، يبدو لي بأن طارق جاد في سعيه نحو التغيير مثل ما حدث في آخر يوم، أسأل الله أن يهديه ويوفقه.

نظرت إليها وقالت بشيء من الحدة:

-لن يتغير وسيعود إلى سابق عهده بعد أن يتأقلم بعد غيابه.

-دوام الحال من المحال، وسنرى ذلك.

نظر الرفاق الأربعة لبعضهم البعض في حيرة واستغراب لتصرفاته، ثم تبعوه في تغيير مواقعهم إلا وليد الذي كان المدرج الأخير ملاذه للنوم، وحين كانوا بمقصف الكلية مجتمعين حول أحد الطاولات يتناولون فطائرهم، قال له محمود في سخرية:

-هل سمعت جواب المزدوجة عن...

قاطعه طارق في حدة وهو يقول:

-غير هذا الحديث.

قال صبري في حيرة:

-ما بك يا طارق؟ نريد أن نلهو ببعض الحديث عن...

نهض وهو يقول:

-افعلوا هذا لوحدكم، اسمحوا لي.

تركهم ودفع ما عليه وغادر المكان، قال صبري في ضيق:

-أهكذا يعاملنا ونحن أصدقاؤه منذ الثانوية؟

قال وليد في ضيق مماثل:

-شيء ما أصاب عقله بعد العملية.

قال محمود في حدة:

-جميعكم تدركون ما هو الشيء الذي يزعج طارق، وجود ضياء، لاشك بأنها مسرورة بعد غيابه الطويل وإعادته لامتحاناته، بينما هو يشعر بالهزيمة لذلك ولا يدري ماذا يفعل ليستعيد هيبته.

-أعتقد بأنك على حق، إنه يتحاشى حتى النظر إلى حيث تجلس.

قال ناصر بعد تفكير:

-طارق لا يشعر بالهزيمة وحسب، بل شيء داخل نفسه قد تغير يدفعه لتجنب ضياء، أثناء فترة رقوده سألني والده عما حدث بينه و بين ضياء من مواقف فأخبرته، لابد أنه قد عنفه بسببها وسيعود طارق الذي نعرفه إن غادرت ضياء هذه الكلية.

سأل محمود:

-وما هو هذا التغيير يا فهيم؟

-لا أعرف؛ ولكن الحل هو أن ترحل ضياء من هنا..

قال في مكر:

- إذن، لدي خطة مناسبة و سنجعل طارق بنفسه ينفذها لترحل ضياء و يعود لنا طارق الذي نعرفه.

و أخبرهم بخطته واتفقوا على تنفيذها، وحين خرجوا من المقصف واتجهوا لقاعة رأوا ضياء تنادي طارقاً بالممر، فانتظرها ولما وصلت إليه قال:

-ما الأمر ضياء؟

بدا الارتباك عليه وهو يتجنب النظر إلى وجهها، بينما أجابته:

- اعطي هذا الدفتر لوالدتك، لقد نسته رُبا ليلة أمس.

تناول الدفتر منها وابتعد سريعاً، كان مرتبكا في نفسه متألماً مما بدر منه نحوها وفي دوامة صراع لا يدري كيف ينهيها، بينما بدت الحيرة على وجهها من تصرفه.

قال وليد لرفاقه:

-نحن معك يا محمود، يجب أن نعيد طارق إلى سابق عهده.

هزوا رؤوسهم ودحلوا القاعة وانتظروا نهاية الدوام بفارغ الصبر، ولما انتهى أحاطوا به حين كان جالسا بالمدرج الثاني يرتب أدواته في حقيبته استعدادا للمغادرة، قال له محمود:

-هناك أمرٌ يجب أن نتحدث فيه عند مغادرة الجميع.

فوجئ بتصرفهم - وهو يتطلع في وجوههم محاولا اكتشاف ما يريدون- لكنه لم يستطع وانصاع لطلبهم، ولما خلت القاعة لهم، جلس محمود عن يمينه وناصر عن يسار ووليد وصبري خلفهم، سألهم في حيرة:

-ما الأمر؟

قال محمود في حدة:

-ما بك مهزوم هكذا يا طارق؟

دُهش وقال:

- مهزوم؟!

قال ناصر في حدة أيضاً:

-نعم، أنت ضعيف جداً، كيف تسمح لضياء بأن تؤثر فيك هكذا؟..

- تؤثر في؟!

فقال وليد وهو يمسك بأعلى ظهر كرسيه :

-نعم، منذ أن غبت عنا بسبب إصابتك عدتُ إلينا منكسراً بدل أن تسعى للانتقام ممن اعتدى عليك ومما فعلت، لا تنسى بأنها أهانتك أمام الجميع.

أجابه بحزم:

-لقد كنتُ مخطئا حينها..

قال صبري ساخراً:

-ألم يقل لك محمود بأنك قد عدت إلينا مهزوما! منذ متى صرت تعترف بالخطأ؟

رد بغضب:

-ليس هذا من شأنكم.

- لقد قلت لنا وقتها بأنك لم تخطئ والآن تقول لنا بأنك مخطئ؟! عجيب أمرك.

قال بنفاذ صبر:

-ما الذي تريدونه مني؟

قال محمود وهو يعقد حاجبيه وينظر في عينيه:

- نريد عودة طارق الذي نعرفه، صاحب الشخصية القوية الفريدة التي لا تعبأ لأي شيء إلا بنفسها.

رد متجاهلا قوله:

-أعتقد بأن طارق الذي تعرفونه قد رحل.

وكاد ينهض إلا أنهم جميعاً أمسكوه من كتفيه وأجلسوه بقوة، قال بغضب:

-دعوني وشأني.

قال ناصر في حزم وهو يضع طرف إصبعه على صدره:

- لا، في أعماقك لا يزال صديقنا الذي نعرفه موجوداً.

قال صبري ساخرا:

-لم تعد رجلاً؛ بل صرت ضعيف الشخصية.

قال محمود في سخرية مماثلة:

-أصبحت محل شفقة الجميع بسبب ضياء.

ارتبك من كل أقوال رفاقه، فصرخ بوجوههم قائلاً:

-توقفوا... أنا لستُ...

قال وليد بسخرية مقاطعاً إياه:

-ترى، هل ستسمح لتلك المزدوجة بالسخرية منك؟

- لم يسخر مني أحد.

قال محمود:

-هه، من أخبرك بأنها لم تسخر منك؟ كانت في قمة السعادة لغيابك.

بدت الصدمة على وجهه، في حين قال ناصر في سخط:

- هذا صحيح، حتى أنها قالت الدفعة صارت أفضل من دون طارق..

لم يستطع أن يستوعب ما سمعه، قال ناصر متابعاً حين أعجبته ملامح الصدمة على وجهه:

- لقد سمعتها أيضا تقول: لقد ارتحنا من إزعاجه ووجوده.

فقال طارق في حيرة:

-كيف يمكنها قول ذلك وهي من ساعدني؟

فسأل محمود في اهتمام:

-متى ذلك؟

فروى له ما حدث في ذلك اليوم حين فقد وعيه بسبب مرضه، رد عليه في سخرية:

- هل أنت غبي؟ ضياء تساعدك! هل تظنها فعلت ذلك لأجلك؟ بل فعلته لأجل أختك، هل تريديها أن تظهر وجهها الشرير أمامها؟ لقد كانت مضطرة لذلك، يا لها من خبيثة.

ذُهل لما سمع، لم يفكر أبداً بتلك الطريقة، هل يمكن أن تكون مساعدة ضياء له هو لأجل أخته فقط؟ فتمتم في نفسه:

-مستحيل، وأنا أعتقد...

قطع تفكيره حين ربت محمود على كتفه وهو يقول في حزم:

-نحن أصدقاؤك منذ سنوات يا طارق وكل ما يهمنا هو أن نراك كما عهدناك، ولا نريدك أن تكون سخرية أحد وسنبذل كل جهدنا لأجلك، ألم تلاحظ بأنك لا تستطيع حتى النظر إلى ضياء ولا حتى إلى حيث تجلس؟ ألست تشعر بأنها قد انتصرت عليك؟

تلبك وهو يقول:

- بل...

رد ناصر وهو يربت على كتفه الآخر ويقول في رفق:

- بل أنت تشعر بأن شيء بداخلك قد انكسر ولا تستطيع إعادته ونحن سنساعدك يا صديقي..

نظر إليه في دهشة، نعم شيء في داخله انكسر، شيء بداخله تبعثر ولا يدري ما هو حقيقته سوى أنه يدرك بأنه أخطأ في حق ضياء ومع ذلك ساعدته ولم يستطع أن يعتذر لها عن كل ما بدر منه طوال السنة الدراسية، لقد كبرت في نفسه بينما هو شعر بأنه أقل منها بكثير بسبب ما قابلته من خير مقابل ما قدمه لها من إساءة، حتى أنه لا يستطيع أن يبوح بمشاعره لأحد، أما الآن، فقد صدمه ما سمعه عنها، وهل ما سمعه كانت جنبات الحقيقة التي استترت بما رأى من رقي خلقها، قال محمود متابعاً:

- إن رحلت ضياء من الكلية فستنسى كل ما مررت به وستظفر لنفسك منها إزاء سخريتها و شماتتها بك.

اتسعت عيناه وزادت صدمته وهو يقول:

- ترحل!!

هز الأربعة رؤوسهم ،وقال ناصر بحزم:

-هزيمتك لن تجبرها إلا انتصارك بهذه الطريقة، ولدى محمود خطة مناسبة لذلك، لن نؤذيها وفي الوقت ذاته ستستعيد نفسك السابقة.

تخبطت نفس طارق هنا أكثر مما كانت عليه، إن رحلت ضياء هل سيعود كما كان؟ هو يشعر بأنه غير قادر على الوصول إليها ولا الابتعاد عنها ونسيان كل ما بدر منه، هل سينهي ذلك كل دوامة الصراع التي داخله؟ وفوق هذا كانت ساخرة شامتة منه بسبب مرضه؟ هز رأسه في قوة مبعدا كل ما في قلبه من صراع حين اجتاحه الغضب، قال في نفسه:

- وضعت لها مكانة في نفسي فإذا بها تهزأ بي! بئس اختيارك أيها القلب، لن أهين نفسي بسببها وأربكها أكثر من هذا.

نظر لمحمود وهو يعقد حاجبيه ويقول في حزم:

-أنا معكم، ما هي خطتك يا محمود؟

ابتسموا جميعهم حين رأوا نظرات طارق التي ألفوها تشع من جديد، وأطلعه محمود على خطته اتفقوا على أن ينفذوها صباح الغد.

*****